قيم التسامح والاعتدال الديني في تراثنا الشعري العربي

إعداد

د. عبد العزيز بن سعود بن عبد العزيز الحلييي
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب بجامعة الملك فيصل

الملخص

يقدم هذا البحث رصداً وتحليلاً لصور التسامح والاعتدال الديني وتحليله في تراثنا الشعري العربي من خلال مبحثين: **المبحث الأول**: معاني التسامح الديني في الشعر العربي، ويتناول بالدراسة والتحليل عدداً من النصوص الشعرية التي تكشف مدى حضور معاني التسامح والاعتدال في بنائية النصوص الشعرية لفظاً ومعنى، والوقوف على أثر التنوع الثقافي الديني في تشكيل مذاهب الشعراء العرب وتجاربهم مع اختلاف أديانهم، ومذاهبهم. **المبحث الثاني**: منهجية الاعتدال الديني في النقد العربي، ويتناول بالدراسة مدى الموضوعية في تعامل نقادنا مع شعرائنا العرب وإبداعاتهم باختلاف دياناتهم ومذاهبهم، ومدى الشفافية والتجرد في تصنيفهم، وإصدار الأحكام النقدية على إنتاجهم الشعري.

الكلمات المفتاحية: التسامح الديني ـ الاعتدال ـ التراث الشعري ـ النقد الشعري ـ شعراء العرب التراثيون

Values of Religious Tolerance and Moderateness in our Arabic Poetic Heritage

Abstract:

This research observes and analyses the images of religious tolerance and moderation in our Arabic poetic heritage, through two treatises: the First Treatise addresses the values of religious tolerance in Arabic Poetry. This treatise examines and analyses a number of poetic texts that reveal the existence of values of religious tolerance and moderation in the structure of poetic texts in both content and form. Moreover, the treatise discusses the impact of religious cultural diversity on formulating doctrines and experiences of Arab poets despite their religions and sects. The Second Treatis tackles the methodology of religious moderateness in Arabic criticism. This treatise examines how objective our critics are in dealing with our Arab poets and their innovations despite their different religions and sects, and how transparent and impartial the classifications and judgments of our critics are when criticizing those poets' works.

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد أثبتت الآداب بفنونها المتعددة على مر العصور في حياة العرب قدرتها التعبيرية لإيجاد فضاءات رحبة للحوار التسامحي بين الأمم، والشعر بكونه الفن المتصدر بينها منذ نشأتها يعد أسرعها تأثرًا وتأثيرًا، وأكثرها مرونة للقيام بدور السفير المرحب به في كل الحضارات، ولذا كان ديوان العرب ووسيطهم لبناء علاقاتهم الداخلية والخارجية.

وحين انبثقت الدعوة الإسلامية كان من مقتضى العقيدة التفاعل الإيجابي مع الشرائع السماوية، يقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهكذا أسس الإسلام للعلاقات الإنسانية التي يريد أن تسود حياة الناس، ولم يكن عائقًا لتحقيق التفاعل الحضاري الإيجابي بين الأمم وشعوبها، بل دعت تشريعاته إلى أن يرتكز التفاعل على ركنين أصيلين لتحقيق السلام هما: العدل، والتسامح الذي لا يعني التنازل والتفريط في العقائد والتشريع، بل هو اعتراف حضاري بالآخر، ينتهج الاحترام المتبادل، والاعتراف بحقوق إنسانيته وحرياته، بما يكفل تحقيق العيش المشترك في ظل التأكيد على حقيقة التعدد الديني بكونها من سنن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ ﴾ [المائدة (٤٨].

وفي إطار الدعوات العالمية، والعربية الإسلامية منها خاصة لتعزيز مفاهيم التسامح والاعتدال وترسيخها تأصيلا وسلوكا وممارسة، ولأهمية دور الشعر العربي منذ نشأته في صناعة التسامح بين الشعوب في ضوء التجارب الإبداعية التي أنتجتها قرائح فريدة كانت تستلهم معانيها التسامحية من معطيات أجوائها المجتمعية الموروثة، وما تعتقده من مسلمات ومبادئ نشأت عليها، تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على قيم التسامح والاعتدال الديني في تراثنا الشعري العربي من خلال تمهيد يؤصل لعلاقة الشعر العربي في نشأته بالدين في ضوء مبدأ التسامح والاعتدال، ثم تقديم مبحثين هما: المبحث الأول: معاني وصور التسامح والاعتدال الديني في الشعر العربي، والمبحث الثاني: منهجية التسامح والاعتدال الديني في النقد العربي، ويلي ذلك خاتمة بأبرز النتائج، ثم مسرد الهامش من المصادر والمراجع والتعليقات، فأسأل الله تعالى السداد في القول والعمل.

تمهيد: علاقة الشعر العربي في نشأته بالدين في ضوء مبدأ التسامح والاعتدال:

هناك علاقة توأمية جذرية بين الشعر والدين منذ النشأة، ذلك أن «كليهما يلامس الروح، ينبثق منها ويؤدي إليها، يناغيها ويناجيها، ويسعى إلى تهذيبها والسمو بها» [(١)]، ويتحقق هذا السمو بطهارة معينهما، ونقاء مصدرهما. وما الشعر في جوهره إلا انعكاس صريح لذلك القلق الروحي الذي يعتري النفس في أشكال متنوعة[(٢)]، ويرى أرنولد هاوزر في كتابه الفن والمجتمع عبر التاريخ أن «فاعلية الارتباط الوثيق بين الدين والفن بشكل عام، والشعر بوجه خاص، ظلت تلازم تطور المجتمعات البشرية، وبالتالي تطورهما نفسيهما، في اتجاه الفصل بينهما، أو تمايز الفن والشعر عن الدين

(١) الروح الإيماني في الشعر العربي دراسة موضوعية وفنية، د.بهجت عبدالغفور الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٧م، ص:١١.

(٢) انظر: الشعر بمعزل عن الدين، عبدالله الحمادي، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، عدد:٢٦، ١٣/ ٧/ ٢٠٠٩م.

باعتباره نشاطًا أو فاعلية مستقلة، ويمكن أن يظهر هذا واضحًا في الأديان الكبرى، سماوية كانت أو غير سماوية»[(١)]، وإذا كان «ارتباط الآداب بالعقائد – سماوية أو بشرية – هو ارتباطٌ وثيق في القديمِ والحديث؛ فالأدبُ ضرْبٌ من الفكر، وكل فكر يقدِّمُ رسالةً ما، صادرة عن التصورِ العقديِّ الذي أفرزها» [(٢)]، فإن مما يؤكد عليه الدكتور جواد علي في كتابه المفصل أن تعايش المنتمين إلى الديانات الجاهلية البعيد عن التعصب العقدي كان يمثل الدائرة الأوسع للتسامح الديني بين الجاهليين، وهذه الدائرة تشمل دوائر أصغر منها؛ تمثل التسامح بين أتباع كلّ ديانة من الديانات الجاهلية الموجودة آنذاك، وإذا كنا نفتقد ما يدل صراحة على الصراع المذهبي بين أتباع كلَّ دين زمن الجاهلية؛ فذلك نفي لوجود ذلك الصراع[(٣)].

وعليه «فإن تعدد الديانات في مجتمع ما لا ينفي إمكانية تقارب المنتمين إليها، ما داموا قادرين على التفاعل السلمي الموصل إلى الأفضل، ويبدو من أخبار الجاهلية وأشعارها أن التعصب إلى الانتماء الديني كان بعيدًا عن تفكير الجاهلي وسلوكه»[(٤)]، وحتى من روي أنه كان من المتحنفين، فقد كان جُلّهم متسامحين مع المنتمين إلى ديانات أخرى، وأعرضوا عن امتهان عقائد غيرهم، ومن يتتبع نصوص الشعر العربي في غالبها

(١) انظر: الترجمة في: الاتكاء على الإبداع العربي الذي دفع إلى بروز الرموز المسيحية في الشعر العربي، حليمة مظفر، مقال، الشرق الأوسط، عدد:٩٩٢٠، الأربعاء ٢٤ذو الحجة١٤٢٦هـ الموافق ٢٥يناير٢٠٠٦م.

(٢) تجنيد العقائد المنحرفة في الأدب العربي الحديث، د.وليد قصاب، مقال، موقع الألوكة، ٢٦/ ١١/ ٢٠١٢م، ١٣/ ١/ ١٤٣٤هـ.

(٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، بيروت وبغداد، ط٢، ١٩٧٦ -١٩٧٨م، ٦/ ٦٣٣.

(٤) الانتماء في الشعر الجاهلي، د.فاروق أحمد سليم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، المكتبة الإلكترونية، ١٩٩٨م، ص: ٤١٣.

الأعم والتي تمس المعتقدات الأخرى غير الإسلامية معنى أو لفظًا كالديانة النصرانية واليهودية يجدها غير مشوبة بالتعصب، ويتأكد لديه تواصل أصحابها مع النصارى واليهود، وتعايشهم معهم، وفيها ما لا يخفى من التقدير لهم(١)، وهو ما ستكشفه الشواهد في مبحثي الدراسة، غير أن هذا لا يعني إغفال دور الشعر في استرفاد العقائد، فهناك ملامح قوية للعقائد الجاهلية في الشعر الجاهلي، وحضور أقوى لشعر الدعوة في صدر الإسلام، ورأينا كيف أن قصائد المعلقات لم تنل شهرتها إلا بعد أن علقت على جدار الكعبة فاكتسبت قيمتها الفنية التاريخية(٢).

وفي هذا الإطار التعايشي والتنوع العقائدي الديني الذي عاشه أفراد المجتمع الجاهلي، وتحت ظلال التسامح الديني نلحظ أن ذلك أثمر تقاربًا فكريًا ومعاشيًّا تطورت به حياتهم تطوراً تجاوزوا به الحدود النّسبية، وانطلقوا به نحو بناء صرح الأمة الأشمل، ولعل هذه الثمرة دعت الدكتور فاروق سليم للدعوة إلى تتبع هذا التقارب الفكري والمعاشي الناتج عن تسامح الجاهليين الديني بكونه جديراً بدراسة خاصة تفيه حقّه، وتفي الجاهليين حقّهم، وتمنح أحفادهم رؤية جديدة لتراثهم الإنساني(٣)، ويؤكد بسام فرجو في بحثه تاريخ المسيحية العربية؛ أن المسيحيين الشرقيين تعاملوا مع اللغة العربية باعتبارها وعاء ثقافيًّا لهم، فأصبحت لغتهم الشعبية المستخدمة في العبادة عند معظمهم، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بنشاطهم(٤)، بل يؤكد الدكتور ميشال نجم أنهم أغنوها، وحازوا قصب السبق في تطويرها وإنمائها(٥).

(١) انظر: المصدر السابق، ص:٤١٣-٤١٤.

(٢) انظر: وساطة الشعر في التسامح الديني والمثاقفة العالمية، د.راشد عيسى، مؤسسة جائزة عبدالعزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠١١م، ص:٦٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص:٤١٩.

(٤) انظر: تاريخ المسيحية العربية، بسام فرجو، بحث منشور إلكترونياً. ١٢ آذار/ مارس ٢٠١٣م.

(٥) انظر: المسيحية العربية تاريخها وتراثها، الأب ميشال نجم، ط ت بدون، ص:٨.

وإذا أردنا أن نقف على مثال آخر لتلك العلاقة الدينية الشعرية التسامحية، فهناك عدد من الباحثين يرى أن الثقافة اليهودية في المجالات الأدبية والفكرية، تأثرت بالعرب المسلمين في الجزيرة العربية، وهذا التأثر واضح في نتاج اليهود اللغوي والأدبي؛ حيث شكلت منهلا ومرجعًا للمفكرين والأدباء اليهود الذين استفادوا حقًّا من طبيعة الحكم الإسلامي المتسامح، فنهلوا من علوم نظرائهم المسلمين، ووضعوا مصنفاتهم مستلهمين من المعجم الديني الإسلامي في تعايش وتلاقح لم يسبق لهما مثيل، وكان نتاج هذا التسامح بالغرب المسيحي، وإسبانيا تحديدًا، ظهور فلاسفة ومفكرين ومتصوفة يهود، لا يختلفون عن نظرائهم المسلمين، حيث شكلوا مصدر إلهامهم[(١)]، وهو ما أكده مئير بوزجلو في قوله: «من الأهمية أن نشير إلى وجود ثقافة يهودية عربية مشتركة، تضمّ في طيّاتها أفضل الشعراء، من (الأندلسي) يهودا هاليفي إلى (اليمني) شالوم الشبزي، ناهيك بأن معظم الديانة اليهودية مكتوبة بالآرامية والعربية، وليس باللاتينية أو الألمانية، واليهودية نفسها عربية أكثر من كونها غربية» [(٢)]، وكذلك يقول الناقد اليهودي (يهوذا الحريزي): «إن بني شعبنا بعد جلائهم عن أرض كنعان قد قطن الكثيرون منهم مع العرب المسلمين في أوطانهم، وألفوا التحدث بلغتهم والتفكير بتفكيرهم، وبامتزاجهم بهم تعلموا صناعة الشعر الموزون في اللغة العبرية، والجدير بالذكر أن الشعراء اليهود عرفوا الأساليب البلاغية المألوفة آنئذ عند العرب المسلمين التي كانوا يزينون بها قصائدهم ويحلون أشعارهم» [(٣)].

(١) انظر: يهود نهلوا من الإسلام: بن جابرول الوجه الآخر لرابعة العدوية، عيسى الكامحي، مقالة، جريدة الصباح، الجمعة، ١٢ يوليو ٢٠١٣م.

(٢) شعراؤنا العرب اليهود ١/ ٢، أحمد الواصل، الغاوون، عدد:٣،أيّار ٢٠٠٨م، نقلاً عن مئير بوزجلو، صحيفة معاريف، ملحق هامجازين، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤م.

(٣) أثر اليهود في الثقافة الشعبية في الجزيرة العربية ١/ ٢، قاسم بن خلف الرويس، الجريدة – الرواق، عدد:١٣٣٢، الجمعة ٥أغسطس٢٠١١م، ٥رمضان ١٤٣٢هـ، ص:٧.

والمتتبع لباكورة شعر العرب بكونه ديوانًا تاريخيًّا، ومنجزًا ثقافيًّا حفظ لهم تراثهم الأخلاقي والجمالي والاجتماعي، وكشف مجمل واقع الحياة العربية وتفاصيلها؛ يجد أن العرب أقرب الأمم لأخلاقيات الإسلام الذي أشرق ضياؤه السماوي كاملاً من الله تعالى، غنياً بتعاليم الوحيين، مكتوباً له الخلود، فلم يكن في حاجة للنيل من أي مجتمع لإثبات ذاته، ومع حضور الرافد الإسلامي بكل قيمه الأخلاقية والإنسانية الموروثة والجديدة موضوعًا وفنًّا في سياقات الشعر؛ بقي من الصعب تمييز العربية على لسان شاعر نصراني كالأخطل، وعربية إسلامية على لسان شاعر مسلم كالفرزدق، ولولا تديّن جرير ما تميز شعره عن قرينيه.

وحتى في العصر الحديث فإن استخدام المعاني والألفاظ لديانات أخرى لا يعتقدها الشاعر لا تعني في جميع الأحوال أنه ينطلق من تجربة دينية محضة، أو أن القصيدة لديه تحولت إلى عظات وخطابات دينية، إنما اتكأت على ذلك، وأفادت منه بدلالاته المختلفة؛ لتقوم القصيدة على تفاعل هذه العناصر مع رؤية الشاعر وواقعه، وتقوم الرموز المستخدمة بنقل معاناة الشاعر الذهنية والجسدية[(١)]، وتعزيز مفاهيم أخلاقية وإنسانية عدة تؤسس للتعايش والمصالحة في المجتمعات، وكأنما هو توظيف عاطفي للشعور الديني يعود بنا إلى أصل العلاقة الممتدة بين الدين والشعر.

(١) انظر: مقالة الاتكاء على الإبداع العربي، نقلا لرؤية كتاب فاعلية الرمز الديني المقدس في الشعر العربي للدكتور كامل فرحان صالح عن دار الحداثة للطباعة والنشر في بيروت.

المبحث الأول

معاني وصور التسامح والاعتدال الديني في الشعر العربي

من طبيعة الإبداع الشعري أنه يستحوذ بسلطة العاطفة وتقنية التعبير، واستهداف العقل والروح على الوجدان الجمعي، وأن لديه القدرة على توظيف إمكاناته في ترسيخ مبادئ التسامح والاعتدال، مستثمرًا حريته في تناول موضوعات الحياة، محلقًا في فضاءات إنسانية عالمية فيتأثر ويتطور من خلالها، وينأى عن قوقعته في إطار ثقافي محدد.

وكما يقول الدكتور راشد عيسى: «إن الشعر يخلق بالضرورة بين الشعراء أنفسهم قرابة إنسانية فنية حرة تنتصر للجمال ولمعنى الحياة، كما يبدع بالضرورة نفسها مشاعر وأفكارًا مشتركة بين القراء من جميع البيئات الأممية، على أن هذه القرابة الإنسانية لا تكون على أحسن وجه إلا بوساطة ما يمكن أن أسميه تعالق الجماليات الفنية الشعرية، وتناسل بعضها من بعض تناظرًا، أو تباينًا، أو محاكاة، أو تناصًا في رحلة جميلة ممتعة من جدلية التأثر والتأثير»[(١)]، ولو استطلعنا تراثنا الشعري العربي لوجدنا بين صفحاته نماذج مشرقة من هذه العلاقات التسامحية مع وجود الصورة المتخيلة عن العصر الجاهلي من كونه عصرًا غلبت عليه العصبية والوحشية، وهذه الصورة غاية في المبالغة، حيث تم تشكيلها دون بحث أو تمحيص، فالإبداع الشعري الجاهلي كشف عن أخلاقيات تسامحية سامية معتدلة تجلت على ألسنة الشعراء، ومواقفهم في أحرج المواقف التي فرضتها طبيعة الحياة الجاهلية، ومن هذه النماذج موقف السموأل اليهودي من امرئ القيس الكندي الوثني حين وقع في مأزق يهدد حياته بالخطر، فاستجار الكندي بالشاعر السموأل، وأودعه أهله وماله، وكان للسموأل «ابن قد يفع، وخرج إلى قنص له، فلما رجع أخذه الحارث بن ظالم، ثم قال للسموأل: أتعرف هذا؟ قال: نعم

(١) وساطة الشعر في التسامح الديني:٧٢.

هذا ابني، قال: أفتسلم ما قِبَلك أم أقتله؟ قال: شأنك به، فلست أخفر ذمتي، ولا أسلم مال جاري، فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه قطعتين، وانصرف عنه، فقال السموأل في ذلك:

وَفَيْـــتُ بِـــأَدْرُعِ الكِنـــدِيِّ إِنِّي إِذَا مَـــا ذُمَّ أَقـــوَامٌ وَفَيْـــتُ» (١)

وكان بذلك مضرب الوفاء في الجاهلية، وأنموذجًا صادقًا لمعطيات التسامح، والتخلق بالموروث التعايشي العربي، ولا غرو فقد دأب شعراء الجاهلية على تعزيز مفهوم الوفاء والتسامح، والدعوة إلى السلام في مدائحهم دون النظر لاختلاف دياناتهم، ولعل أبرز هؤلاء داعية السلام زهير بن أبي سلمى أحد المتحنفين العرب في الجاهلية، فحين أصلح هرم ابن سنان والحارث بن عوف بين الحيين المتحاربين في حرب داحس والغبراء، واحتملا ديات القتلى، ونشرا السلام في غطفان، تدفقت عندها شاعريته، وتغنى بالسلام، واستفظع الحرب، ومدح الداعين إلى السلم، فقال:

فأَقْـسَمْتُ بِالْبَـيْتِ الَّـذِي طَـافَ رَجَـالٌ بَنَـوْهُ مِنْ قُـرَيْشٍ وَجُـرهُمِ
يَمِيْـنَاً لَـنِعْـمَ الـسَّيِّدَانِ وُجِدْتُـمَا عَلَـى كُـلِ حَـالٍ مِـنْ سَـحِيْلٍ

ونلحظ هنا صورة من توظيف البعد الديني في إشارة واضحة على أثر تلك الارتباطية بين الدين والشعر في بناء الصورة التسامحية الداعية إلى السلام، فهو يقسم هنا بالكعبة المشرفة، وبقريش وجرهم -لارتباطهما التاريخي المكاني والديني بالبيت العتيق- بأن هذين السيدين أفضل الناس جميعاً سلمًا أو حربًا، ثم يقول:

تَدَارَكْتُمَا عَـبْـسَاً وَذُبْيَـانَ بَعْـدَمَا تَـفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْـنَهُمْ عِطْـرَ مَنْـشِمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ الـسِّلْمَ وَاسِـعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوْفٍ مِنْ الْقَـوْلِ نَـسْلَـمِ

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢٢،٢/ ١٢٥.

ويشير هنا إلى أنه وبعد أن وصلت الحرب بين قبيلتي عبسٍ وذبيان مرحلة الإفناء، بادر هذان السيدان بإنقاذهما من هذا المصير، وصرّحا بأن دفع ديات القتلى من الطرفين، والمبادرة بطيِّب الكلام سيصل بهما إلى السلام الشامل والعادل للجميع.

وفي إطار ترسيخ مفاهيم الوفاء والتسامح الإنساني في الشعر الجاهلي دون اعتبار للاختلاف الديني؛ فإن في سيرة حياة الأعشى ما يؤكد أنه تجاوز الدين ممارسة، وتعاملاً مع الآخرين، فقدم مع وثنيته صورًا متعددة من ذلك، فهو يمدح قيس بن معد يكرب اليهودي بأنه وفيّ يقيم على ميثاقه، ولا يضيع في يومه ما أعطى من عهد نفسه، فيقول فيه:

وَمَـــنْ لا تُـــضَاعُ لَـــهُ ذِمَّـــةٌ فَيَجْعَلَهـــا بَـــينَ عَـــينٍ ضِـــمَارَا[١]

كما مدح الأسود بن المنذر اللخمي النصراني بوفائه للمستجير، فقال فيه:

وَوَفَاءً إِذَا أَجَرْتَ فَمَا غُـرَّتْ حِبَالٌ وَصَلْتَهَا بِحِبَالِ[٢]

وذكر صاحب الأغاني أن الأعشى كان يفد على أساقفة نجران «وكان يزورهم ويمدحهم، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران» [٣]، وأشار الأعشى إلى ذلك في قوله:

وَكَعْبَةُ نَجْرانَ حَتْمٌ عَلَيْـكَ حَتَّى تُنَاخِي بِأَبْوابِهَـا
نَزُورُ يَزيدَ وَعَبدَ المسيحِ وقيســاً هُمُ خيرُ أربابها[٤]

(١) العين: الحاضر، الضمار: خلاف العيان وهو ما غاب أو هو ما لا تكون منه على ثقة. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح د.محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م، ص:١٠١.
(٢) ديوان الأعشى الكبير:٥٩.
(٣) الأغاني: ٦/ ٣١٤.
(٤) ديوان الأعشى: ق٢٢/ ٢٦-٢٩.

ولئن حلف الأعشى بالرهبان وربهم، فلقد حلف في مواضع أخرى بالكعبة، ومواطن الحج، وكما مدح ملوك نجران النصارى، فإنه حين رحل إلى النبي ﷺ بعد ظهور الإسلام مدحه بقصيدته المشهورة، لكن لم يلقه بعد أن ردته قريش، فلم يسلم، وقد قال:

نَبِـيٌّ يَـرَى مَـا لا تَـرَوْنَ وَذِكْـرُهُ أَغَـارَ لَعَمْـرِي فِي الـبِلادِ وأنجَـدَا
لَـهُ صَـدَقَاتٌ مَـا تَغِـبُّ وَنَائِـلٌ وَلَـيْسَ عَطَـاءُ اليـومِ مَانِعَـهُ غَـدَا
أجِـدِّكَ لَمْ تَـسْمَعْ وَصَـاةَ مُحَمّـدٍ نَبيِّ الإلَهِ، حِينَ أَوْصَى وَأَشْـهَدَا[(١)]

وهذا السلوك الشعري يؤكد أنه «لم يكن الشعراء في الجاهلية مرتبطين بدينهم ارتباطاً وثيقاً يدير ألسنتهم بقصائد كثر تنبع من هذا الدين، وتدور حوله، ونحن نجد قلة من الشعراء في الإسلام والمسيحية واليهودية يتسم شعرهم بسمات دينية، والعربي لم يكن يولي الدين اهتماماً كبيراً، وكان تقديره لدينه يقتصر على مزاياه العملية» [(٢)].

وكان من أخلاقيات العرب التي تعزز التعايش بينهم مبدأ حسن الجوار، «فالعربي يحافظ على جاره، غريبًا كان أو قريبًا، ويحافظ على حريمه وشرفه، ويتحمل إساءته، ويغضي عن هفواته، ويحب له الخير بل يعمل على ذلك، وتلك صفة توارثتها القبائل العربية في جزيرتهم إلى وقتنا الحاضر» [(٣)]، بل كانوا يتفاخرون بعزة جارهم، يقول السموأل:

(١) المصدر السابق: ق١٧.
(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د.أحمد محمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م،ص:٣٧٧..
(٣) الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، د.زهدي صبري الخواجا، دار الناصر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٤هـ(١٩٨٤م)، ص: ٣٠٤.

وَمَـا ضَرَّنـا أَنَّـا قَلِيـلٌ وَجَارُنَـا عَزيـزٌ وَجـارُ الأَكثـرينَ ذَلِيـلُ [١]

ولّما كان التأثير بين جُلِّ ديانات الجاهلية متبادلاً بين الفكر والسلوك؛ فإن تسامح الجاهليين المؤمنين باللهّ تعالى أسهم في وجود سبل للتعايش السلمي والتوحّد، فالإقرار بحرمة الأشهر الحرم مثلا التزام ديني أسهم في نشر الأمن والنظام بينهم في وقت معلوم من كلّ عام، إلى جانب وجود منطقة سلام وأمان دائم تحيط بالكعبة وتُسَمَّى الحَرَم، ومن يتتبع أخبار الجاهلية لا يجد أثرًا لوجود حركة تنصير أو تهويد منظّمة تدعو إلى إشاعة السلام، ولكن العقائد السماوية نفسها تدعو إلى السلام، وتنفّر من الحرب، فكان لها أثر في تفكير الناس وسلوكهم [٢]، ومما يؤكد وجود هذا الوعي؛ قول قُريط بن أنيف في قومه النصارى:

لكنَّ قَـوْمي وإنْ كـانوا ذَوي عَـدَدٍ لَيْـسُوا مِـنَ الـشَّرِّ في شَيْءٍ وإنْ هانـا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظلْمِ مَغْفِـرَةً ومِـنْ إسـاءَة أَهْـلِ الـسُّوْءِ إحْـسَانا
كـــأنَّ ربَّـــكَ لم يَخْلُـــق لِخَـــشْيَتِهِ سِواهُمُ مِن جميـعِ النـاسِ إنْـسَانا [٣]

ومثل هذه الأبيات تشير إلى اعتقاد العرب بما تحمله الديانات السماوية من معاني خشية الله، ومجافاة الظلم، ومقابلة الإساءة بالإحسان، حتى عُدت هذه الأخلاق التسامحية مثلبًا عند دعاة الحرب، فهذا جابر بن حُنَيّ التغلبي يقول:

وَقَـدْ زَعَمَـتْ بَهْـرَاءُ أنَّ رِمَاحَنَـا رِمَـاحُ نَـصَارى لا تَخُـوضُ إلى الـدَّمِ [٤]

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ٢/ ٢٣٠.

(٢) انظر: الانتماء في الشعر الجاهلي: ٤٢١-٤٢٢، ٤٢٦.

(٣) شرح ديوان الحماسة، أبو علي المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١/ ٣٠-٣١.

(٤) شرح اختيارات المفضل الضبي، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ٢/ ٩٥٣ -٩٥٤.

فقد كان قوم جابر نصارى لا تخوض رماحهم إلى الدماء، وكذلك كان حال رماح الغساسنة، وغيرهم من العرب النصارى، ولكن ذلك لا ينفي وجود من التزموا بعقيدة التسامح والوئام. ومن هنا نجد أن الانتماءات الدينية الجاهلية بتنوعها نجحت في تطوير حياة الجاهليين، ودلّ على ذلك سيادة التسامح الديني بينهم، وشيوع الإيمان باللهّ الواحد، ودعوتهم إلى السلام، وتأثرهم بمفاهيم دينية عن السلام والعدل والحقّ[١].

وفي صدر الدعوة بعد انبثاق التشريع الإسلامي، لم تزل أخلاقيات التسامح والاعتدال الموروثة تتحدى قسوة المواقف المتأزمة بين أهل الشرك وأهل الإسلام، فبعد عودة النبي محمد ﷺ، وبصحبته زيد بن حارثة من الطائف، وقد لقي من ثقيف ما لقي من إيذاء وضرب بالحجارة، وصل إلى حراء فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي يسأله أن يدخل محمدًا ﷺ وزيدًا في جواره، فقال المطعم: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تلبسوا السّلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا، فدخل محمد ﷺ، ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا، فلا يهجه أحد منكم، فانتهى محمد ﷺ إلى الركن، فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محيطون به[٢]، ولأجل ذلك قال النبي محمد ﷺ في أسارى بدر «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له» [٣]، وحين توفي في مكة على دينه الوثني قبل غزوة بدر، وله نيف وتسعون سنة، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يبكيه:

---

(١) انظر: الانتماء في الشعر الجاهلي:٤٢٨.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، أبوعبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري، دار صادر، بيروت، ١/ ٢١٢.

(٣) الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م)، رقم الحديث (٢٩٧٠)، (ج٣/ ص١١٤٣).

أَيَـا عَـيْنُ فَـابْكِي سَـيِّدَ الْقَـوْمِ بِـدَمْعٍ وَإِنْ أَنْزَفْتِـهِ فَاسْـكُبِي الـدَّمَا
وَبَكِّـي عَظِـيمَ الْمُـشْعَرَيْنِ كِلَـيْهِمَا عَـلَى النّـاسِ مَعْرُوفًـا لَـهُ مَـا تَكَلّـمَا
فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الـدّهْرَ وَاحِـدًا مِنْ النّاسِ أَبْقَى مَجْـدُهُ الْيَـوْمَ مُطْعِـمَا
أَجَرْتَ رَسُولَ اللهِّ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا عَبِيـدَكَ مَـا لَبّـى مُهِـلٌّ وَأَحْرَمَـا[1]

وهنا نلحظ كيف أن شاعر الإسلام الأول يمتدح رجلا وثنيًّا مقدرًا له تضحيته وموقفه الرجولي من رسول الإسلام ﷺ، فلم يمنع حسان عن الرثاء كون المطعم رجلا مات على الشرك، ولم يُسجل أي موقف في مجتمعه يعيب موقفه الشعري الإنساني.

ومن الشواهد البارزة أيضًا على أثر الشعر في استثارة عاطفة التسامح والرحمة قصة كعب بن زهير قبل إسلامه حين أساء للنبي محمداً ﷺ في شعره، حتى أهدر المسلمون دمه، فاستطاع كعب أن يستميل بعاطفة شعره قلب نبي الرحمة والتسامح، فلقيه وطلب منه العفو منشدًا بين يديه لاميته الخالدة التي قال فيها:

إِنَّ الرَّسُـولَ لَنُـورٌ يُسْتَـضَاءُ بِـهِ وَالعَفْوُ عِندَ رَسُـولِ اللهِ مَـأْمُولُ[2]

لقد كان ذلك تعبيرًا صادقًا عن روح التسامح في المنهج الإسلامي، وكان دليلا على مكانة الشعر وتأثيره الوجداني للظفر بالعفو مع عظم الإساءة.

ومن الشعراء الذي جسدوا حقيقة التسامح الذي كانت تعيشه أمة الإسلام الشاعر الراجز العجاج بن رؤبة النصراني الذي عاش في البصرة، وفي البادية المجاورة لها أيام الخلفاء الراشدين، ثم في عهد بني أمية. وكان موالياً للأمويين، فحارب مع

(١) انظر: السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، مؤسسة علوم القرآن، ١/ ٣٨٠.

(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، تحقيق: عبدالرحمن بن ناصر البراك وغيره، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١/ ٢٢٧.

جيوشهم أعداء دولتهم كما يستدل من أوصافه لحروبهم. وحضر مع الشعراء بعض مجالسهم الأدبية، ومع عزوفه عن الرموز والمضامين النصرانية في شعره إلا ما ندر، نلحظ في رجزه مضمونًا إسلاميًّا منه ذكر نبي الإسلام ﷺ بقوله:

مُحَمَّـدًا وَاخْتَـارَهُ الله الخِـيَرْ فَـمَا وَنَـى مُحَمَّـدٌ مُـذْ أَنْ غَفَـرْ
لَهُ الإِلهُ مَـا مَـضَى وَمـا غَـبَرْ أَنْ أَظْهَرَ الـدِّينَ بِـهِ حَتَّـى ظَهَـرْ(١)

وقيل إن العجاج أنشد أبا هريرة رضي الله عنه قوله الذي وصف فيها الخالق وأعماله، ويوم الحساب وأهواله:

الحَمْـدُ لله الـذي تَعَلَّـتْ بِـأَمْرِهِ الـسَّماءُ وَاسْـتَقَلَّتْ
بِإِذْنِـهِ الأَرْضُ وَمَـا تَغَيَّـتْ أَرْسَـى عَلَيهـا بِالجِبـالِ الثُّبَّـتْ

فلما سمع أبو هريرة إنشاده قال: أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب(٢).

ولعل مردّ شيوع المعاني الإسلامية لدى الشعراء النصارى أنهم تمثلوا مبادئه، ولا سيما إذا ما عُلِمَ أن كثيراً منهم خالطوا الشعراء الإسلاميين في العصر الأموي، فكان لزاماً عليهم أن يتأثروا بهم وبأخلاقهم وبمبادئهم، بعد أن أيقنوا قيمة مثل هذه القيم الأخلاقية التربوية، ولذا لا نعجب حين نرى العجاج ينهى عن شتم الآخرين ولو كانوا على غير دينه فيقول:

لا أَشْـتُمُ المَـرْءَ الكـريمَ المُـسْلِما وَلا أَرَى شَـتْمَ الـبَرِيءِ مَغْـنَمَا

وهذه الأبيات تدل على احترام الديانات السماوية بعضها بعضا، فالشاعر لا يشتم

(١) انظر: شعراء النصرانية، جمعه ووقف على طبعة وتصحيحه: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م، ٨/ ٢٢٨-٢٣١.

(٢) انظر: الأغاني: ٢٠/ ٣٦١.

الإنسان الكريم المسلم احتراماً له مع انتمائه إلى دين غير دينه، والسبب وراء ذلك أنه يرى أن شتم الإنسان البريء لا يعد مكسباً أو مغنماً(١).

ومن مظاهر التسامح الديني ومعانيه ما كان من حال الحطيئة الهجّاء الذي أجمع الرواة على رقة إسلامه، فقد أسلم ثم ارتد، وهجا القبائل المتمسكة بإسلامها، وحين أُسر عاد للإسلام، غير أن الهجاء كان غرض شعره، فما ترك أحدًا إلا وهجاه، ثم يعتذر متخذًا دعوة الإسلام للمودة والتسامح ذريعة لقبول عذره، فيقول بعد هجائه الزبرقان بن بدر:

أَلَمْ أَكُ مُسْلِمًا فَيكونَ بَينِي ... وَبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ والإِخَاءُ

فَلَمْ أَشْتُمْ لَكُمْ حَسَبًا وَلَكِنْ ... حَدَوْتُ بِحَيثُ يُسْتَمَعُ الحُدَاءُ

ومع هذا السلوك المتقلب في تدين الحطيئة نجده يوظف لغة التسامح الديني؛ مستعطفًا الفاروق مع شدته وحزمه حين حبسه بعد هجاء الزبرقان بن بدر، ليعفو عنه بعد قوله:

مَاذَا تَقُولُ لأَفْراخٍ بِذِي مَرَخٍ ... حُمْرِ الحَواصِلِ لا مَاءٌ وَلا شَجَرُ

أَلقيتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فَاغْفِر عَلَيكَ سَلامُ اللهِ يَا عُمَرُ(٢)

ويمثل الأخطل النصراني ظاهرة شعرية بارزة في العصر الأموي، حيث «كان يجاهر بدينه لا يُعمل فيه الحياء البشري، والدليل عليه دخوله على الخلفاء والصليب

(١) انظر: شعر الحكمة عند الشعراء النصارى في العصر الأموي من منظور إسلامي، منذر ذيب كفافي، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، السنة الأولى، عدد٢، ٢٠١٠م، ص:٢٠٨، ٢١٠.

(٢) انظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبوري، مكتبة النهضة، مطابع الإرشاد، بغداد، ط١، ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م)، ص:٢٤٢-٢٤٥.

على صدره لا يخجل من حمله علانية، كما أن هجاء أقرانه الشعراء، ولا سيما جرير لم يؤثر من هذا القبيل، ولما عرض عليه الخليفة عبدالملك أن يدين بالإسلام أبى، ونجا منه بأبيات هزلية، وسمعه هشام بن عبدالملك ينشد في قصيدته اللامية قوله:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلى الـذَّخَائِرِ لَمْ تَجِـدْ ذُخْـرًا يَكُـونُ كَـصَالِحِ الأَعْـمَالِ

فقال له: هنيئًا لك أبا مالك، هذا الإسلام، فقال له: يا أمير المؤمنين ما زالت مسلمًا في ديني» [(١)]، ويروى أيضًا أن رجلا من بني شيبان جاء إلى الأخطل، فقال له يا أبا مالك: إنا وإن كنا بحيث تعلم من افتراق العشيرة، واتصال الحرب والعداوة، تجمعنا ربيعة، وإن لك عندي نصحًا، فقال: هاته فما كذبت، فقلت: إنك قد هجوت جريرًا، ودخلت بينه وبين الفرزدق، وأنت غني عن ذلك، ولا سيما أنه يبسط لسانه بما ينقبض عنه لسانك، ويسب ربيعة سبًّا لا تقدر على سب مضر بمثله، والملك فيهم والنبوة قبله، فلو شئت أمسكت عن مشارته ومهارته، فقال: صدقت في نصحك، وعرفت مرادك وصلتك رحمك، فوالصليب والقربان لأتخلصن إلى كليب خاصة دون مضر بما يلبسهم خزيه، ويشملهم عاره، ثم أعلم أن العالم بالشعر لا يبالي وحق الصليب، إذا مر به البيت السائر الجيد أمسلم قاله أم نصراني[(٢)]، وهنا نجد الأخطل اتقى المساس بمضر خشية أن يتجاوز الخطوط الدينية، وهو إدراك ووعي بمغبة الوقوع فيما يقلق صفو الأجواء التسامحية والتعايشية التي ينعم بها مع قبيلته في ظلال الخلافة الإسلامية.

وعندما جاء العصر العباسي اتسعت ظاهرة التسامح الديني إثر الانفتاح الكبير على الأمم الأخرى، والامتزاج بها في السكن والمصاهرة والثقافة، فدخل أكثرهم الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفل للناس من عدل ومساواة،

(١) شعراء النصرانية: ١٧١-١٧٢.
(٢) الأغاني:٨/ ٣٠٠-٣٠١.

وحتى من لم يعتنق الإسلام من الموالي من غير العرب اندمج مع المحيط العربي بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية. وبذلك فتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق في شؤون الحياة كلها، واستطاع خلفاء بني العباس بسياستهم المتسامحة المنفتحة أن يحدثوا امتزاجاً قوياً لم يبلغوه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بلغوه باحترام الاختلاف والتنوع والتعدد(١)، ولنضرب مثالا على ذلك أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي كاتب الإنشاء ببغداد لعز الدين معز الدولة بختيار الديلمي، والخليفة العباسي، ذلك المبدع الذي غلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر، وذاع صيته وأصبح نادرة زمانه في البلاغة وعلو مكانته، وكان على دين الصابئة ومن نساك أهل دينه والمتشددين في ديانته، وفي محاماته على مذهبه، ويحكى أن الخلفاء والملوك والوزراء أرادوه على الإسلام، فأداروه بكل حيلة، حتى إن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم، فلم يهده الله تعالى للإسلام، كما هداه لمحاسن الكلام، ومع هذا فقد حفظ القرآن، واستشهد به كثيراً في الرسائل الرسميّة التي يدبجها، وكان يصوم رمضان، ويعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ولم يكن هذا التسامح يحط من قدره في نفسه، بل كان شديد الاعتزاز بها؛ يقول:

وَقَدْ عَلِمَ السُّلطانُ أَنِّي أَمِينُـهُ وَكَاتِبُـهُ الكَـافِي الـسَّدِيدُ الْمُوَفَّـقُ

فَيُمْنَايَ يُمْنَاهُ وَلَفْظِيَ لَفْظُـهُ وَعَيْنِي لَهُ عَينٌ بِهَـا الـدَّهْرُ يَرْمُـقُ

وقد حملت أجواء التسامح الصابي لتوطيد صلة إخاء وثيقة بالشريف الرضي، يتبادل معه الرسائل والأشعار، ومنها قول الشريف:

إِخَاءٌ تَسَاوَى فِيهِ أُنْسًا وَإِلفَـةً رَضِـيعُ صَـفَاءٍ أَوْ رَضِـيعُ لِبَـانِ

(١) التفاعل الثقافي والحضاري في العصر العباسي، د.خلف محمد جراد، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب،دمشق، عدد:٨٠.

تَمَـازَجَ قَلبَانَـا مِـزَاجَ أُخُـوَّةٍ وَكُـلَّ طُلُـوبِي غَايَـةً أَخَـوانِ

وحين توفي ببغداد رثاه الشريف الرضي، وبكى خلاله في قصيدة قال فيها:

أَعَلِمْـتَ مَـن حَمَلُـوا عَـلى أَرَأَيْتَ كَيفَ خَبَا ضِياءُ النَّادِي
جَبَلٌ هَوَى لَـوْ خَـرَّ فِي الـبَرِّ مِـنْ وَقْعِـهِ مُتَتَـابِعَ الأَزْبَـادِ
هَذا أَبُو إِسحقَ يُغْلَـقُ رَهْنُـهُ هَـلْ ذَائِـدٍ أَوْ مَـانِعٍ أَوْ فَـادِي
إِنَّ الدُّمُوعَ عَلَيْكَ غَيْرُ بَخِيلَةٍ وَالقَلْبُ بِالسُّلْوَانِ غَيرُ جَـوادِ[(١)]

وهذا الشعور الإنساني الذي يقطر من النص عاطفة وصدقًا يكشف بحق عن مفهوم التسامح وواقعيته، ويؤكد أن التعايش والتصالح أمر غير مستحيل، وإن اختلفت العقائد.

ويعد الفكر الصوفي الإسلامي ظاهرة ثقافية أشغلت عقول العلماء المسلمين وعلماء الغرب في آن معًا، حيث تأثر العرفان الصوفي بالمسيحية تأثراً بالغاً بسبب تقارب الشعور الإيماني الفكري بينهما[(٢)]، يقول الششتري:

تَأَدَّبْ بِبَابِ الدِّيرِ وَاخلَعْ بِهِ النَّعلا وَسَلِّمْ عَلَى الرُّهبانِ وَاحْطُطْ بِهِمْ رَحْلا[(٣)]

ومما يلحظ على ما أنتجته العقلية الصوفية الجرأة في توظيف الرموز النصرانية إلى درجة الذوبان في طقوس معانيها، مما جعل هذه الشخوص الشعرية مرمى للتهم بالزندقة، والعقاب بالقتل، ولم تكن حجة حرية التعبير تشفع لهم، ولا التأويلات، ولو كانت روح شعرهم تتعلل بالتسامح الديني لتسوغ هذه الشطحات التي عدها الدكتور

(١) انظر سيرته في: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١/ ٢١، ويتيمة الدهر للثعالبي:٢/ ٢٨٧.
(٢) وساطة الشعر في التسامح الديني:٣٩.
(٣) انظر: الشعري عند الصوفية، عاطف جودة نصر، دار الأندلس، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨م، ص:٤٧٦-٤٧٧.

راشد عيسى «أهم وأشجع المظاهر التعبيرية عن التسامح الديني عند العرب المسلمين»[١]، وبررها بقوله «إن الشاعر يبقى محتفظاً بالدين الذي ورثه تجنباً لعقاب تلحقه به السلطة الدينية، لكن مخيلته تمارس حريتها الذكية الواسعة في تجريب لذة إيمانية يوحيها دين آخر، وهو يحقق ذلك بالشفرات الرمزية والثيمات الملغزة وأساليب الكناية» [٢].

وإذا تحولنا من دائرة المكان الذي نمت فيه دوحة الشعر العربي الوارفة في الجزيرة العربية وما حولها، لنستطلع تاريخ الأندلس فسنلقى المصادر التقليديّة التي تصور هذا التاريخ سلسلة من المعارك بين الصّليب والهلال طيلة حوالي ثمانية قرون، حتى بدت علاقة المسلم الأندلسي بالنّصراني الإسباني من خلال تركيز المؤرّخين على الأحداث الرّسميّة علاقة حقد وبغض وكراهيّة، وكأن المسلم لا يلتقي بالنّصراني إلاّ في ساحة الوغى، ولا لغة بينهما إلاّ لغة السّيف، وإن كان هذا صحيحًا في جملته، فهو لا يقدّم لنا الواقع المعاش، فالاختلاف بين الملّتين النّصرانيّة والإسلاميّة لم يقض تمامًا على بعض الفترات الّتي تسمو فيها النفس الإنسانية؛ لتُعانق قيمًا من الحبّ والتسامح[٣]، يقول المستشرق الفرنسيّ هنري بيريس «إنّ أيّ شعب مغلوب في أيّ قطر من الأرض لم يحظ بما حظي به الشعب الإسباني إبّان حكم المسلمين من تسامح تجلّى في تطبيق العهود والقوانين الإسلاميّة الّتي أعطت لأهل الكتاب حقوقا كاملة في العيش الكريم» [٤].

وفي هذا المضمار يمكّننا الشعر -وهو لغة الوجدان- من أمثلة واضحة على ذلك، حيث طرحت المّادّة الشّعريّة في العصر الأندلسي قضّية السلم مع العدوّ وعقد الصّلح

(١) وساطة الشعر في التسامح الديني:٤٣.

(٢) المصدر السابق:٤٤.

(٣) انظر: المجتمع الأندلسي بين التّعصّب والتّسامح من خلال المادّة الشّعريّة، د.جمعة شيخة، مجلة الأندلس الرقمية، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، عدد:١، خريف-شتاء ٢٠١١م.

(٤) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيّة، بيروت، ١٩٨٢م، ص:٥.

معه، وأصبح قبول الممدوح بالسّلم مع أعدائه أهمّ خصلة يُمدح بها في هذه الحقبة الأخيرة من تاريخ دولة الإسلام بالأندلس، يقول ابن الخطيب في ممدوحه يوسف الأول معززًا تلك النّصيحة التسامحية بسندها الدّيني:

وَإِنْ هُمُ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ مِنْهَا بِمُسْتَحْكَمِ الأَسْبَابِ وَالعَلَقِ
فاجْنَحْ لَهَا بِكِتَابِ اللهِ مُقْتَدِيًا إِذْ ذَاكَ وَاسْتَبْقِ فَلاًّ مِنْ ظُبَاكَ بَقِي[1]

والأمير المسلم لا يحاول عقد الصّلح بينه وبين النّصارى فقط، وإنّما حبّه للسّلم جعله يقوم بإصلاح ذات البين بين أمراء النصرانيّة أنفسهم؛ ليستتبّ الأمن في كامل المنطقة، فإذا نظرنا على سبيل المثال إلى منطقة الثّغر الأعلى في عهد ملوك الطّوائف وجدنا أنّ الاحتكاك بين المسلمين والنّصارى كان كبيرًا، وفرضت الحياة بين إمارات هذه المنطقة النّصرانيّة والإسلاميّة ضربًا من التعايش السّلمي نلاحظه في بعض القصائد المدحيّة الّتي قالها ابن درّاج القسطلّي في مدح أمراء بني هود وبني تجيب حكام سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى، فالأمير المنصرُ بن يحيى لم يأل جهدًا في إصلاح ذات البين بين الأمراء النصارى أنفسهم، ووصل به الأمر إلى تنظيم حفل لعقد المصاهرة بين أميرين من أمراء النّصارى: ابن فردلند ملكُ قشتالة وابن رايمند قومس برشلونة على أساس أن يُزوّج هذا الأخير ابنته إلى ابن الأوّل، وما عَقدُ هذه المصاهرة والمنذر شاهدُها إلاّ دليلُ على ثقتهم فيه، وبرهان على النيّة في إحلال السّلام والوئام بينهم محلّ القطيعة والصّدام[2]، يقول ابن دراج:

وَجَنَحْتَ للسِّلْمِ التِي جَنَحُوا لَهَا وَقَضَاءُ رَبّكَ فِى العِبَادِ خِيَارُ
فأتوْكَ مُسْتَبِقِينَ قَدْ قَرُبَ المَدَى مِنْهُم إليكَ وذُلِّلِ المِضْمَارُ
آياتُ نَصْرٍ فِي الوَرَى بِسُيُوفِهَا أَمِنُ الهُدَاةُ وآمَنَ الكُفَّارُ[3]

(١) انظر: الفتن والحروب، د. جمعة شيخة، تونس، ١٩٩٤م،٢/ ٢٤٨.
(٢) انظر: المجتمع الأندلسي بين التّعصّب والتّسامح.
(٣) ديوان ابن درّاج، تحقيق محمود عليّ مكّي، ط٢، ١٩٨٣م، ص:١٢٧.

وكانت هذه المصاهرة الّتي شهدها الرّهبان والأحبارُ عقدا كفيلا بتحقيق السلام.

وفي العصر الحديث نجد في إطار البحث عن دائرة التسامح في فضاءات شعرنا الحديث شاعرًا كأمير الشعراء أحمد شوقي تلازم استشهاده في الدعوة للتسامح بين كل من النصوص والأفكار ذات الصلة في كل من الإسلام والمسيحية في القصيدة الواحدة أو البيت الواحد، كما في قوله:

عِيدُ المَسيحِ وَعيدُ أَحْمَدَ أَقْبَلا يَتَبَارَيَانِ وَضَاءَةً وَجَمَالا
مِيلادُ إِحْسَانٍ وِهِجْرَةُ سُؤْدَدٍ قَدْ غَيّرا وَجهَ البَسِيطَةِ حَالا[1]

ونراه يندد مثلا بالذين أشعلوا الحرب في البلقان، فيقول في لغة مفعمة بالدعوة للتسامح الذي دعت إليه الديانات السماوية كالمسيحية:

عِيسَى سَبِيلُكَ رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فِي العَالَمِينَ عِصمَةٌ وَسَلامُ
مَا كُنتَ سَفَّاكَ الدِّماءِ ولا امرَءًا هَان الضعيفُ عليهِ والأيتَامُ[2]

ويعد المهجرون أهَّم فئة من رجال الفكر العربي الحديث التي نشرت معاني التسامح والتسامي في الدين، وجعلت لذلك نصيبًا كبيرًا في الأدب[3]، لذا وجدنا إلياس فرحات يكثف في شعره عددًا من معاني التسامح والاعتدال الديني، مؤكدًا أن الأديان لا يمكن أن تفرق بين أبناء البلد الواحد والشعب الواحد، وكان يخاطب العلماء ورجال الدين بقوله:

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، ١/ ١٨٦.

(٢) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٢٣٤.

(٣) انظر: دراسة التسامح الديني في أشعار إلياس فرحات، حسن مجيدي وطيبه كشوهي، فصلية دراسات الأدب المعاصر، العدد:١٢، السنة:٣،١٠/ ١١/ ١٣٩٠هـ، ص:٧٤.

لا تَجعَلـوا آلـةَ التَّفريـقِ دِيـنكُم فَالدِّينُ عَنْ وَصْمَةِ التَّفريقِ مَعْصُومُ[١]

وكان من الطبيعي أن يتحول حب فرحات للعروبة وتقديسه لها إلى الفخر والاعتزاز بالإسلام، لما له من أثر كبير في الوحدة، وهذا يبدو في تمجيده للإسلام، يقول:

سَـلامٌ عَـلى الإِسـلامِ أَيـامَ مَجـدُهُ طَويـلٌ عَـريضٌ يَغْمُـرُ الأَرضَ والسَّمَا
نَـمَا فَنَمَـتْ فِي ظِلِّـهِ خَـيرُ أُمَّـةٍ أَعَـدَّتْ لِنـصرِ الحَـقِّ سَـيفاً وَمَـرْقَمَا[٢]

وإذا كانت أتيحت للمهجريين ممن يدينون بغير الإسلام حرية الثناء على الإسلام، ورسوله الكريم، فهناك عدد من الشعراء العرب الذي عاشوا بين المسلمين يجمعهم الوطن الواحد، ولم يمنعهم اختلاف الديانة عن خوض غمار هذه التجربة الشعرية تأكيدًا على مبدأ التسامح بين الأديان السماوية، بل إن الشاعر السوري المسيحي وصفي قرنفلي خاف أن يوصف بمجاملة المسلمين، أو مداهنتهم لحاجات في نفسه، فاستفتح قصيدته بالدفاع عن نفسه، وتبرير مدحه رسول الله ﷺ، فقال:

قَـدْ يَقولـونَ: شَـاعرٌ نَـصْراني يُرسِـلُ الحُـبَّ في كِـذابِ البيـانِ
يَتَغَنَّـى هَـوى الرَّسُـولِ، وَيهـذِي بِانْبِـثاقِ الهُـدَى مِـنَ القُـرآنِ
يَنْـتَحِي الجَبْهَةَ القَوِيَّةَ يَحدُوها رِياءً وَالشعرُ (لا وِجدَانِي)

كَـذَبُوا والرَّسـولِ لَمْ يَجْـرِ يَومًـا بِـخِلافِ الـذي أَكَـنَّ لِـسَانِي
مَـا تَراءَيْـتُ بِـالهَوَى بَـلْ سَـقَانِي طَائِفٌ مِنْ الحُبِّ والهَوَى مَا سَقَانِي
أَوَعَـارٌ عَـلَى فَتـىً يَعْـرُبِيٍّ أَنْ تَغَنَّـى بِالـسَّيِّدِ العَـدْنَانِي

(١) انظر: المصدر السابق:٧٧.
(٢) انظر: السابق: ٧٧-٧٨.

أَوْ لَيْسَ الرَّسولُ مُنقِذَ هَذا الشَّرقِ مِنْ ظُلمةِ الهـَوى وَالهَوَانِ[(١)]

كما حفظت لنا قريحة الشاعر العراقي اليهودي أنور شاؤول كثيرًا من تواصله مع رموز الثقافة العربية في مناسبات مختلفة، فقد شارك بقصائده في تكريم عدد من الشعراء المسلمين والنصارى، ورثى عددًا من الزعماء العرب، وعندما اعتُقل الأديب والاقتصادي مير بصري، بعث إلى وزير الداخلية برباعية شعرية أعجبته كثيرًا، وأشار بنشرها في جريدة "الجمهورية"، وكانت سبباً في الإفراج عن مير بصري. يقول شاؤول في رباعيته:

إنْ كُنتُ مِنْ مُوسَى قَبَسْتُ ... عَقِيدَتِي فَأَنَا الْمُقيمُ بِظِلِّ دِينِ مُحَمَّدِ
وَسَمَاحَةُ الإِسلامِ كَانَتْ مَوْئِلي ... وَبَلاغَةُ القرآنِ كَانَتْ مَوْرِدِي
مَا نَالَ مِنْ حُبِّي لأمّةِ أَحْمَدٍ ... كَوْني عَلى دينِ الكَلِيمِ تَعَبُّدِي
سَأظَلُّ ذَيَّاكَ السَّمَوءَلُ فِي الوَفَا ... أَسَعِدْتُ فِي بَغدادَ أَمْ لَمْ أُسْعَدِ

وفي مؤتمر الأدباء العرب الذي أقيم في بغداد، ألقى شاؤول قصيدة في قاعة الخلد بحضور الجواهري ونزار قباني، قال فيها:

قَلبي بِحبِّ بَنِي العُروبةِ يَخفِقُ ... وَفَمِي بِضادِهِمُ يُشيدُ وَينطِقُ
أَوَ لَستُ مِنهم مَنْبِتاً وَأَرُومةً ... قَدْ ضَمَّنا المَاضِي البَعيدُ الأَوْثَقُ
إذْ خُطَّ فِي سِفْرِ الوَفَاءِ سَمَوءَلٌ ... أُمثُولَةٌ عَربيةٌ والأَبْلَقُ
وَاليومَ نَحوَ المَجدِ نَقطَعُ دَرْبَنا ... وَإِلى الغَدِ الهَانِي مَعًا نَتَشَوَّقُ[(٢)]

(١) انظر عددًا من النصوص المشابهة في كتاب: محمد ﷺ في شعر النصارى العرب، محمد عبد الشافي القوصي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو.

(٢) انظر: شعراؤنا العرب اليهود ١/ ٢، أحمد الواصل، دار الغاوون للنشر والتوزيع، عدد٣، أيار ٢٠٠٨م.

وفي ظل الصراع العربي الإسرائيلي كانت هناك بعض الدعوات من بعض الأحزاب في إسرائيل تدعو للتعايش بين الشعبين، حيث أجرى الحزب الشيوعي لقاءات بين الشعبين، وكانوا يحتفلون معًا بالانتصار على النازية، ويخطبون باللغتين ضد الفاشية والاستغلال الطبقي، يقول توفيق زياد في ديوانه (أشد على أياديكم) مخاطبًا اليهود التقدميين:

الوَردَ أَحملُ والسلامْ والحقَّ والحبَّ العميقْ
هَذي يَدِي يَا أَصْدقَاءَ كِفاحِنا فِي كُل ضِيقْ
فِي كُلِّ عِرقٍ نَابِضٍ عَهدُ الصَّديقِ إِلى الصَّديقْ

ومن هذا المنظور الإنساني رأى الشعراء أن النازيين هم أعداء للإنسانية جميعها، وأما حزب مبام فقد تبنى في طروحاته السياسية أخوة الشعبين، حتى رأينا الشاعر راشد حسين يخاطب شاعرًا يهوديًا في ديوانه مع الفجر دعاه لزيارته في الكيبوتس، وقد تعذر على راشد أن يخرج من قريته لأنه لا يحمل تصريحًا:

فَغَدًا سَتَخرجُ مِن حَيَاتَيْنا مَعًا ... دُنيا مُعطرةُ المَوارِدِ مُسْكِرَهْ
قَلبي وَقَلْبَكَ نَغْمَتَانِ تَنَادَتَا ... بلسان عُصفور وَنَغْمَةِ قُبَّرَهْ
قُلْ لِلبنَادِقِ إِنْ فَهِمتَ حَدِيثَها ... مَاذَا صَنعتِ بِطفلَةٍ مُتَعَثِّرَهْ
لُغَةُ المَحَبَّةِ سَهْلَةٌ وَحَدِيثُها ... أَجْدَى وَأَجْمَلُ مِن حَديثِ مُدَمِّرَهْ

ومن خلال استقراء هذه النماذج الشعرية يرى الشاعر الفلسطيني فاروق مواسي أن السر في هذه الروح التعايشية يعود إلى الانضواء في الأحزاب السياسية اليسارية، فالشاعر يتورع ويحجم عن إيذاء رفيق نضاله وكفاحه ضد الصهيونية والسياسة الإسرائيلية المهينة للوجود العربي في البلاد، كما إنه بحاجة إلى عضو منهم يؤازره ويشد من عضده، إلى جانب تمسكه بالنظرة الإسلامية والمسيحية باحترام دين الآخر، وهي مسألة لها أثرها[1].

(١) انظر: صورة اليهودي في الشعر العربي في إسرائيل، فاروق مواسي، موقع الشاعر www.faruqmawasi.com.

وفيما مر من نصوص شعرية من خلال عبور سريع في فضاءات العصور الأدبية في التاريخ العربي كشفنا عن مدى حضور معاني التسامح والاعتدال الديني في نسيج ومضمون هذه النصوص، واستكمالاً لهذا الكشف الذي يؤصل للثقافة التسامحية في التراث الشعري العربي واقعاً وإبداعًا، نلحظ على مستوى توظيف الرموز في النصوص الشعرية صورة جديدة للتسامح والاعتدال تؤكد نأي الشاعر العربي عن التعصب في تكوين معجمه الشعري، وصوره الفنية، وتوظيف ذلك في سياقاته الشعرية بحرية منضبطة في غالب أحواله، لا تمس اعتقاده بثوابت وتشريعات دينه، ولا تقترف إساءة بحق من هو على غير دينه، على نحو قول الشاعر المسلم الأقيشر الأسدي الذي اعتذر لنفسه عن حمل الصليب بكونه مسلمًا دون الإساءة لغيره، مع أنه كان شاعرًا هجَّاء، يقول:

في فتيـة جعلـوا الـصليب إلههـم   حاشـاي إني مـسلم معـذور(١)

ولم يكن هذا التوظيف اللفظي لرموز الديانات الأخرى وليد عصر أدبي متأخر، بل كان حاضراً في شعر العرب منذ جاهليتهم، نجده مثلا في قول لبيد حين رثى أخاه:

يَلْمَـسُ الأَحْـلاَسَ في منزِلِـهِ   بِيَدَيْـهِ كـاليهوديّ المُـصَل(٢)

والأحلاس أكسية رقيقة تكون على ظاهر البعير تحت رحله، أي يطلبها بيديه وهو لا يعقل من غلبة النعاس، فكأنه يهودى يصلي في جانب يسجد على جبينه، واليهودى يسجد على شق وجهه وأصل ذلك أنهم لما نتق الجبل فوقهم، قيل لهم إما أن تسجدوا وإما أن يلقى عليكم، فسجدوا على شق واحد؛ مخافة أن يسقط عليهم الجبل فصار عندهم سنة إلى اليوم، وهنا يتأكد مدى معرفة لبيد الدقيقة بديانة اليهود وطقوسهم،

---

(١) ديوان الأقيشر الأسدي، صنعة د.محمد علي دقه، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص: ٧٣.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، ص:١٤٢ .

ولذا استطاع أن يوظف هذا الوصف الموفق في إيصال معناه المراد، ونلمح مثل ذلك في قول الشاعر الجاهلي الصعلوك صخر الغيِّ الهذلي يصف سحاباً:

كـــــأنَّ تَوَالِيَـــــهُ بـــــالمَلاَ نَصَارَى يُـسَاقُوْنَ لاقَـوْا حَنِيْفَـا[١]

وهذا الوصف وإن كانت ألفاظه وظفت تقنياً لبناء صورة فنية إلا أنها تؤكد احترام النصارى لغيرهم أيضاً، فصخر يشبّه شكل السحاب بنصارى يسقي بعضهم بعضاً في عيد لهم، فلاقوا (حنيفاً) فاحتفلوا به بالتفكير له، وذلك بالانحناء وطأطأة الرأس.

ومثل هذه الأبيات تدل دلالة واضحة على تواصل أصحابها مع أهل الديانات الأخرى، والمتدينين منهم بالتحديد، وعلى تعايشهم معهم، وفيها ألوان التقدير المتبادل بينهم، وهذا الأمر ينطبق على جميع العصور الأدبية، وإن كنا نلمس تفاوتًا في مدى حضورها كمًّا وكيفًا، فإذا كانت قد انحسرت في شعر صدر الدعوة الإسلامية لتبني شعراء الدعوة مهمة ترسيخ مفاهيم الإسلام، ومصطلحاته الجديدة، فإننا نجد لها حضورًا مكثفًا مثلاً في أدب الديارات، وفي الشعر الحديث نلمس هذا التوظيف بشكل ملحوظ مثلا في شعر السياب الذي شكلّ الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، والتراث المسيحي أصلا خصبًا من أصول لغته الشعرية، والذي وظفه السيّاب للتعبير عن آلامة، وأوجاعه الجسدية والروحية، و«من يقرأ شعر أدونيس العربي المسلم يدهش أمام غزارة الموروث المسيحي في شعره» [٢].

وهكذا نجد تراث الأديان الشعري العربي ومن منطلق التسامح والاعتدال الديني

(١) ديوان الهذليين، تحقيق أحمد الزين ومحمود أبوالوفا، دار الكتب المصرية،١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)، القسم الثاني، ص:٧١-٧٢.

(٢) وساطة الشعر في التسامح الديني:٢٩.

يتعزّز بالتقادم بين طائفة وأخرى، واللافت أن معظم العرب من مختلف الديانات ممن ساهموا في الثقافة بما فيها من آداب وفنون يعدّون أنفسهم عرباً أولاً، وأصحاب ديانة ثانياً، وبقدر ما يؤدّي الظرف الأيديولوجي إلى تباين المصالح، وفروق عمق الإرث، واختلاف التجربة الحضارية، تنكشف التمايزات الدينية عند العربي نفسه في ظلال من الوئام والسلام.

المبحث الثاني
منهجية التسامح والاعتدال الديني في النقد العربي

لعل من أبرز مظاهر التسامح والاعتدال الديني في ضوء علاقة الدين بالشعر العربي خاصة أن المصادر الإسلامية وحدها وبدون منافس هي من قامت بدورها الحضاري في حفظ نتاج شعراء الديانات الأخرى الذي أُنتج في محيطها الجغرافي، فكشف هذا النتاج عن مدى التقارب اللغوي والثقافي، والذي نلحظه مثلاً في عدم اختلاف ملامح الشعر النصراني عن الشعر الوثني لدى شعراء الجاهلية باستثناء عدي بن زيد الذي كان تدينه وراء ظهور إشارات إلى رموز عقدية من الديانة النصرانية في شعره، ومثله الأعشى، وهو ما جعل المستشرقين يرون أنه «من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الإسلام» (١)، وفي الوقت ذاته نجد أن الثقافة النصرانية تأثرت بالعقلية العربية البدوية، وأثرت فيها فخرج نصارى العرب بالروح والفكر العربي، والديانة والأخلاق النصرانية، وعاشوا حياة البداوة، وعرفوا سلوك الصعلكة، ونطقوا العربية شعراً وحكمة، وخاضوا الفنون وأبدعوا؛ ليتركوا لنا تراثًا عربيًّا أصيلاً(٢)، وكما يقال عن شعراء النصرانية والوثنية يقال عن شعراء اليهودية، فهذا كارلو نالينو يقول: «لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية...؛ لأنكم إذا اطلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل الإسلام ما ألفيتم فيها شيئاً أو عبارة يميزها من سائر أهل البادية، فمن طالع مثلاً أبيات السموأل بن عادياء لما توهم أن صاحبها تابع لدين اليهود» (٣).

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٨/ ٣٦١.
(٢) انظر: شعراء العربية النصارى، السيد عبد الله سالم، الحوار المتمدن، عدد: ٤٠٤٠، ٢٣/ ٣/ ٢٠١٣م.
(٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، : ١٨/ ٣٣٥.

وكما أشرنا لم تكن المصادر العربية الإسلامية لتتخلى عن دورها الحضاري في حفظ التراث الذي أنتجه إنسان أرضها دون النظر إلى ديانته ومعتقده؛ لتجسد من خلال هذا الدور أنموذجًا تاريخيًّا تسامحيًّا، كما أنها التزمت بمنهج الاعتدال والموضوعية في الحكم عليها، ومارست في نقدها المعايير ذاتها والأدوات التي اعتمدتها بعيدًا عن التعصب لانتماءات دينية، أوعقدية، أو مذهبية؛ «فالشاعر العربي أبو نواس كان شعوبياً وصار شاعر الخمر الأول، ولم تستطع القوى الدينية والأخلاقية شطب شعره الماجن من مدونة الشعر العربي؛ لأنه لو تم ذلك لفقد العرب جزءًا مهما من جماليات الشعر العربي»(١)، «والفارسي عمر الخيام وهو شاعر عالمي لا يمكن تصنيفه بالصوفي أو الملحد أو المسلم مع أنه أدى فريضة الحج» (٢)، وهذا هو النهج الذي ارتضاه جملة من نقادنا القدماء المعتبرون في دفاعهم عن الشعراء، والذين خاضوا أهم الصراعات النقدية التي خضعت لنظرتين هما: الأولى المدافعة عن الشعراء، والتي تعد الشعر تخييلا ومبالغة لا يحاسب الشاعر عليه، وأصحاب هذا التوجه يعتمدون المعايير الشكلية في أحكامهم، أما أصحاب النظرة الأخرى؛ فيمثلها خصوم الشعراء المهتمون بمضامين الشعر، ومدى تطابقها مع الدين والواقع والمألوف، والحكم على الشعر من خلال ذلك، ومن ثم محاسبة الشاعر؛ لأنهم يرون في شعره دليلا على طبيعة معتقده وأخلاقه(٣).

وكانت أهم الصراعات النقدية التي شغلت نقادنا القدماء هي تلك الصراعات

(١) انظر: وساطة الشعر في التسامح الديني:٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق:٢٥.

(٣) انظر: الفصل بين الشعر والدين في التراث النقدي عند العرب، د.كامل يوسف عتوم، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد:٣، العدد:٢، ربيع الأول ١٤٢٨هـ - نيسان ٢٠٠٧م، ص:١٨.

التي دارت حول أبي تمام والمتنبي، فأبو بكر الصولي يعد أبا تمام غاية في الشعر، لم يبلغه فيه أحد ما بلغه، فكان شديدًا على خصومه، واتهمهم بالجهل والتعصب(١)، وهو ما جعله يقول مدافعًا عن أبي تمام: «وقد ادّعى قومٌ عليه الكفر بل حقّقوه، وجعلوا ذلك سببًا للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أنَّ كفرًا ينقص من شعرٍ، ولا أنَّ إيمانًا يزيد فيه» (٢)، ولعل منطلق اتهامه نابع من تصادم معايير خصوم أبي تمام مع قيم التسامح والاعتدال التي يستلزم حضورها في بناء الأحكام النقدية، وبخاصة في الشعر؛ إيمانًا بما تختص به طبيعته الإبداعية، وهذا لا يعني المساس بالاعتقاد، وهو ما جعل الصولي يستدرك أن الخلفاء لم يعاقبوا بعض الشعراء إلا حين ثبت تجاوزهم الحد في الإساءة للمعتقدات «بإقرار وبينة، وما نقصت بذلك رتب أشعارهم، ولا ذهبت جودتها، وإنما نقصوا هم في أنفسهم، وشقوا بكفرهم» (٣)، وهكذا وضع الصولي المنهج الاعتدالي في النقد الذي يحفظ للشعر مكانته الفنية، ويصون المعتقدات من تطاول الشعراء عليها بالإساءة والامتهان، ويوجه رسالة صريحة للشعراء قائلاً: «على أنه ما ينبغي لجاد ولا مازح أن يلفظ بلسانه، ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل، ويُتاب من مثله» (٤)، وهو ما يعني أن الإساءة في الشعر بما يُغضب الله تعالى تحط من قدر صاحبه، وإن جاد شعره.

وكما دار الصراع النقدي حول أبي تمام دار حول المتنبي، فابن جني الناقد اللغوي

(١) أخبار أبي تمام، أبوبكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق: خليل عساكر وزميليه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٣٧م، ص: ٤-٥.
(٢) المصدر السابق: ١٧٢-١٧٣.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

يرى «أن الآراء والاعتقادات لا تقدح في جودة الشعر» [١]، وفي ضوء المنهجية النقدية التي اختطها القاضي الجرجاني صاحب الوساطة في الحكم على المتنبي القائمة على «التزام طريق العدل» [٢]، والتسامح حين العثور على مواطن الزلل، والتماس العذر لها، ليقول مساويًا بين هفوات العالم والشاعر: «وأي عالم سمعت به ولم يَزِلَّ ويغلط، أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يَهفُ ولم يسقط» [٣]، وهو بذلك يريد تحقيق الغاية من التزام الاعتدال والتسامح في الحكم النقدي على الشاعر بروح قضائية «بأن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصر به عن رتبته، وأن نجعله رجلا من فحول الشعراء» [٤]، وهذا بحق مما يرسخ نزاهة الحكم، ويخلصه من نوازع وشوائب التعصب والظلم الناتج عنه. وحين أورد أبياتًا للمتنبي احتج بها خصومه عليه بكونها تدل على ضعف العقيدة، جاء رد القاضي الجرجاني حاسمًا في هذه القضية فقال: «فلو كانت الديانة عارًا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر؛ لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليهم بالكفر،...والدين بمعزل عن الشعر» [٥]، وعزلة الدين عن الشعر لا تكون إلا في ضوء مبدأ التسامح والاعتدال، وصون المعتقد عن الإساءة والامتهان، فالإفراط والتفريط في ذلك غير مقبول، ولا ترتضيه الإنسانية السوية.

إن مما يجب الاعتراف به أن شعراء العرب غير المسلمين قد أثروا آداب ولغة

(١) شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت،٢/ ٢٨٢.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعلي البيجاوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص :٨٢،١٧٧.

(٣) المصدر السابق :٤.

(٤) السابق :٤١٦.

(٥) السابق :٦٣-٦٤.

العرب بتعبيرات لم يسبقهم إليها أحد، وتركت قصائد بعضهم أثرًا بالغًا في التاريخ العربي، إذ حملت إشارات إلى حوادث ونزاعات سياسية وحروب قبلية. وكانت كتب الأدب في جملة حديثها عنهم غاية في الإنصاف والاعتدال، ومنذ الجاهلية كان نقاد العرب أنموذجًا للاعتدال، ولذا رضيت شعراء العرب مع تعددية ديانتهم ومعتقداتهم أن يُضرب للنابغة الذبياني الشاعر النصراني قبة من أُدم بسوق عكاظ ليأتونه طوعاً مختارين فيعرضون عليه أشعارهم، ويرتضون حكمه عليهم(١)، ومع تأسيس قاعدة الإسلام كان نبيه الكريم محمد ﷺ يقدر الشعر، ويرى أن بيانه حكمة وسحر، لذا قال حين أعجبه شطر بيت للبيد قاله في جاهليته: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(٢)، فما ضرت ديانة لبيد قبل إسلامه أن يستشهد بشعره النبي المعصوم ﷺ، و«كان أبوبكر رضي الله عنه يقدم النابغة ويقول: هو أحسنهم شعرًا، وأعذبهم بحرًا، وأبعدهم قعرًا»(٣)، كما كان زهير بن أبي سلمى المتحنف شاعر عمر رضي الله عنه المفضل، وليس تفضيله لما يمتاز به شعره من جودة وإتقان وحسب، بل يرجع ذلك أيضًا إلى الصوت الذي كان ينبعث من خلاله داعيًا للسلام والوئام في مجتمع قبلي تتجاوب فيه الأصوات الشعرية التي تذكي سعير الحروب (٤)، ولذا قال لابن عباس: أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سلمى، قلت:

(١) انظر: الأغاني: ٩/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) انظر: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: د.علي حسين البواب، دار النشر ودار ابن حزم، ط٢، ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م)، ٣/ ٦٧ .

(٣) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن ابن رشيق القيراوني، قدم له وشرحه وفهرسه د.صلاح الدين الهواري وهدى عودة، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م، ١/ ١٦٧.

(٤) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د.عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط١، ١٤٠٦هـ (١٩٦م)، ص: ٦٥.

وبم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظل في المنطق، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه[١]، وحين جاءه وفد غطفان سألهم: أي شعرائكم الذي يقول، وأورد لهم عددًا من محفوظه الشعري، ومن ذلك:

فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الـذي هُـوَ مُـدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْـكَ وَاسِـعُ

فقالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: هذا أشعر شعرائكم، أو قال: هو أشعر العرب[٢]، وحين أُنشد عثمان بن عفان ﷺ قول زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِندَ امرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَعَنْ حَالِهَا تَخْفَى عَلَى النَّـاسِ تُعْلَـمِ

قال: أحسن زهير وصدق. لو أن رجلا دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس[٣]. وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله: «لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ونصبت لهم راية فجروا معًا علمنا من السابق منهم، وإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة، فقيل: ومن هو؟ فقال: الكندي. قيل: ولم؟ قال: لأني رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة» [٤]، فإذا كانت هذه الأحكام الموضوعية التي لا تؤمن بالتعصب الديني أبدًا في نقدها للتراث البشري صادرة من نبي الإسلام وخلفائه الراشدين، فلا عجب أن يكون ذلك نهجًا ودستورًا للأمة.

ويعد أهمّ كتب المختارات الشعرية التي حفظت أسماء الشعراء من مختلف الديانات منذ نشأة الشعر كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي (ت: ٨٤٦ م)، الذي ضمت طبقات فحوله فحول الشعر في الجاهلية وهو عشر طبقات، وكذلك طبقة

(١) انظر: العمدة في محاسن الشعر: ١/ ١٧٢.
(٢) انظر: الأغاني: ١١/ ٢٥-٢٦.
(٣) انظر: الأغاني: ٩/ ٣١٢.
(٤) انظر: العمدة في محاسن الشعر: ١/ ٦٧.

أصحاب المراثي، وطبقة شعراء القرى العربية، وضمت: شعراء المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين، ثم خص شعراء اليهود بطبقة دون غيرهم، ثم أورد طبقات فحول الإسلام وضم إلى طبقتها الأولى الأخطل مع نصرانيته، وفي الطبقة الثانية ضم القطامي وهو أيضا نصراني، وعلى هذا النحو حتى أتم طبقات فحول الإسلام، ومن الملاحظ أنه دمج شعراء الديانات المختلفة في طبقات مشتركة، بينما خص اليهود بطبقة منفردة، ولعل طبيعة أهل الذمة من اليهود أنهم كان أكثر تمحورًا حول مواقع محددة من المواطن ما جعل الجمحي يمنحهم هذه الخصوصية، بعكس شعراء الديانات الأخرى الذي كانوا أكثر اختلاطًا واندماجًا في معيشتهم، كما أنه لم يستغل هذه الخصوصية بالتعرض إلى عقيدتهم الدينية بل أورد أشعارهم، متجردًا من الحديث عنها، واكتفى بتصديره الطبقة بقوله: «وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جيد» (١).

كما حفظت المجاميع الأدبية وعلى رأسها الأغاني والكامل والأمالي ونفح الطيب والخزانة وغيرها عددًا وافرًا من الروايات والأشعار والأحكام النقدية، والأسماء التي استمرّت في عطائها الشعري من الشعراء النصارى واليهود وغيرهم عبر عصور الحكم الإسلامي، ولو تتبعنا مجالس تراثنا العربي الأدبية، وما وصل إلينا من أحكام نقادنا خلال العصور الأدبية المتتابعة لتحققنا من أن نهجنا النقدي نابع من سماحة الإسلام واعتداله في الحكم، وإقراره الموروث الأخلاقي العربي الذي يضع الأمور في نصابها دون تعصب أو تحيز، ولعلنا نقف في هذا المبحث على بعض الأحكام النقدية التي سطرها نقادنا في شعراء اختلفوا معهم في الدين والاعتقاد فأنصفوهم، وقدموهم بالعدل على أهل ملّتهم.

وحتى كتب أهل اللغة والنحو الباحثة عن الفصاحة كانت تنهل من معين الشعر

(١) انظر:طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة ١/ ٢٧٩.

العربي بكل حيادية وموضوعية، وعلى سبيل المثال هناك دراسة بعنوان (شواهد سيبويه من شعراء النصرانية من صدر الإسلام حتى ١٥٠هـ دراسة نحوية وصرفية ودلالية) أحصت ثمانية شعراء نصارى هم: أبوزبيد الطائي، والحارث بن كلدة، وكعب بن جعيل، وهدبة من الخشرم، وميسون الكلبية، والأخطل، والعجاج بن رؤبة، والقطامي، وكشفت الدراسة أن هؤلاء الشعراء الثمانية ساهموا بسبعة وستين شاهدًا أثبتت أكثر من ثمانين قاعدة نحوية(١).

وكما تمت الإشارة في المبحث الأول حول حضور الشاعر الأخطل النصراني المثير على منصة المنافسة مع فحول الشعر الأموي، فإننا نلحظ فيما رصد من أحكام نقدية لهذه الحقبة كيف تم الحكم على شعرائها وفق معايير نقدية لم يكن للانتماء الدين دور في تكوينها، فمما يروى من هذه الأحكام النقدية، ومع ما فيها من حدة الألفاظ لشدة المنافسة التي كانت تذكيها حروب النقائض، فيروى أن حماد الراوية كان يفضل الأخطل على جرير والفرزدق، فقال له الفرزدق: إنما تفضله؛ لأنه فاسق مثلك، فقال: لوفضلته بالفسق لفضلتك(٢)، وحول علاقته بعبدالملك خاصة يروي صاحب الأغاني بأن الأخطل كان «يجيء وعليه جبة خز، وحرز خز في عنقه سلسة ذهب، فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمرا حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن»(٣).ويعلق ابن رشيق على هذه العلاقة بعد أن أورد نصًا للأخطل يجاهر فيه بمخالفته شريعة الإسلام، وكذلك هجاءه الأنصار إرضاء ليزيد ابن معاوية قال: «وهذه غاية عظيمة، ومنزلة غريبة حملت

(١) انظر: شواهد سيبويه من شعراء النصرانية صدر الإسلام حتى ١٥٠هـ دراسة نحوية وصرفية ودلالية، عبدالرحمن حسن، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، ٢٠٠٩.

(٢) انظر: الأغاني: ٨/ ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٣١٠.

من المسامحة في الدين على مثل ما نسمع، والملوك ملوك بزعمهم»[١]، وجاء رجل إلى يونس من حبيب النحوي فقال له: من أشعر الثلاثة؟ قال: الأخطل، قلنا من الثلاثة قال: أي ثلاثة ذُكروا فهو أشعرهم[٢]، وروي أن الفرزدق دخل الكوفة، فلقيه ضوء بن اللجلاج، فقال له: من أمدح أهل الإسلام؟ فقال له: وما تريد إلى ذلك؟ فقال: تمارينا فيه، قال: الأخطل أمدح العرب[٣]، وقيل لجرير: ما تقول في الأخطل؟ قال: كان أشدنا اجتزاء بالقليل، وأنعتنا للحُمر والخمر[٤]، وهذا بعض من سيل الأحكام النقدية التي أفضى بها النقاد والخصوم.

ويروى «أن رجلا من بني شيبان جاء إلى الأخطل فقال له: يا أبا مالك إنا وإن كنا بحيث تعلم من افتراق العشيرة، واتصال الحرب والعداوة تجمعنا ربيعة، وإن لك عندي نصحًا، فقال: هاته فما كذبت، فقلت: إنك قد هجوت جريرًا، ودخلت بينه وبين الفرزدق، وأنت غني عن ذلك، ولا سيما أنه يبسط لسانه بما ينقبض عنه لسانك، ويسب ربيعة سبًّا لا تقدر على سب مضر بمثله، والملك فيهم والنبوة قبله، فلو شئت أمسكت عن مشارته ومهارته، فقال: صدقت في نصحك، وعرفت مرادك وصلتك الرحم، فوالصليب والقربان لأتخلصن إلى كليب خاصة دون مضر بما يلبسهم خزيه، ويشملهم عاره، ثم أعلم أن العالم بالشعر لا يبالي وحق الصليب إذا مر به البيت المعاير السائر الجيد أمسلم قاله أم نصراني» [٥]، وبعد أن أنشد الأخطل على عبدالملك مدحته (خف القطين فراحوا منك أو بكروا) قال: ويحك يا أخطل! أتريد أن أكتب إلى الآفاق

(١) السابق: ٨/ ٣١٠.
(٢) السابق: ٨/ ٢٩٣.
(٣) انظر: السابق: ٨/ ٢٩٧.
(٤) انظر: السابق: ٨/ ٢٩٨.
(٥) انظر: السابق: ٨/ ٣٠٠-٣٠١.

أنك أشعر العرب؟ فقال: أكتفي بقول أمير المؤمنين: هذا أشعر العرب، وقيل إن عبدالملك قال فيه: إن لكل قوم شاعرًا، وإن شاعر بني أمية الأخطل[(١)]،«وقيل للأخطل عند الموت: أتوصي أبا مالك؟ فقال:

أُوصِي الفَـرزْدَقَ عِنـدَ المَـمَاتِ بِـــأُمِّ جَريـــرَ وَأَعْيَارِهَـــا
وَزَارَ القُبـــورَ أَبـــو مَالِـــكٍ بِـــرَغمِ العِـــدَاةِ وَأَوْتَارِهَـــا

... ولما بلغ الفرزدق قول الأخطل، جعل يحن عليه، ويقول: سآخذ بوصية أخي»[(٢)]، وهنا يفيض حنان الفرزدق المسلم على صاحبه النصراني، وتتحقق الأخوة لفظًا ومعنى، وإن كان الهدف هجاء جرير الذي يشترك معه في الدين والنسب، كما يتأكد هنا أن الشعر وطن تتآخى فيه الإنسانية، وطن تتسع حدوده لاستيعاب الأديان والمذاهب والاتجاهات.

ولم تزل هذه الروح النقدية محلقة في فضاءات نقادنا في العصر الحديث، فطه حسين يعتقد في إطار هذا المنهج أن ننسى عواطفنا، وتعصباتنا الدينية وقوميتنا، إذ إنّ العصبية في القومية والدين ظلمٌ للإسلام، وإن أردنا أن نصل إلى النتائج العلمية الإيجابية، يجب أن نكون من الأحرار[(٣)]، والدكتور ميشال جحا الأديب اللبناني الذي قام بنشر دراسة عن خليل مطران عام ١٩٨١ يشير إلى أن شوقي وحافظ ومطران يمثلون الثالوث الشعري المعاصر الذي يذكرنا بالثالوث الأموي: الأخطل وجرير والفرزدق، والذين سبقوهم بأكثر من اثني عشر قرناً من الزمن، وقد عاش هؤلاء الشعراء الثلاثة حقبة

(١) انظر: السابق: ٨/ ٣١٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ٢/ ٤٩٠.

(٣) انظر: طه حسين في نقد كتاب الشعر الجاهلي، محبوبة بادرستاني، دراسة، جامعة آزاد الإسلامية، إيران، ٥/ أيار مايو/ ٢٠١١م.

زمنيـة متقاربة، فنظموا في كثـير من الأحيـان الشعر في مناسبـات واحدة[١]، وعبر طه حسين عن رأيه في شعر مطران وهو يخاطبه قائلاً:إنك زعيم الشعر العربي المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين، وأنت حميت (حافظاً) من أن يسرف في المحافظة حتى يصبح شعره كحديث النائمين، وأنت حميت (شوقي) من أن يسرف في التجديد حتى يصبح شعره كهذيان المحمومين[٢]، وحين انتقل شوقى إلى رحاب ربه اختار أعضاء جماعة أبوللو الشاعر (خليل مطران) رئيسًا للهيئة وكان أحمد محرم، وإبراهيم ناجى (وكيلين).

ويبدو أن الشعراء العرب اليهود لم يكونوا بعيدين عن هذا التعايش والتصالح الإنساني

ما أتاح لهم فرصة مع أقرانهم المسيحيين والمسلمين المشاركة في الحياة الثقافية والأدبية، وما كانت القصيدة الاحتفائية بمحاضرة الشاعر اليهودي إبراهام يهودا (١٨٧٧ - ١٩٥١) التي ألقاها الشاعر معروف الرصافي عام ١٩٢٠م، عندما كان أستاذاً في دار المعلمين المقدسيّة، إلا تأكيداً على ذلك الاحتفاء والتقدير المتبادل:

خِطَابُ يَهُودَا قَدْ دَعَانَا إِلى الفِكْرِ وَذَكَّرَنَـا مَـا نَحـنُ فِيـهِ عَـلى ذِكْـرِ
لَـدَى مَحْفَـلٍ في القُـدسِ بِـالقَوْمِ تَبَوَّأَهُ هِرْبـرْ صُـموئيلُ في الـصَّدْرِ

وحين أصدر الشاعر المصري اليهودي مراد فرج يوسف ليشع ديوانه الأول باسم "ديوان مراد" (١٩١٢) حياه أحمد شوقي شعراً فقال:

وَجَدتُ شِعْرَ مُرادٍ رَوضَةً أُنُفـاً لَمْ تَحْكِها رَوْضَةٌ حُـسْنًا وَلا أَرَجَـا

(١) انظر: ٦٣عامًا على وفاة شاعر الأقطار العربية، أحمد الديحاني، مقالة، صحيفة الاقتصادية، عدد: ٦٨٠٨، ١١/ ٧/ ١٤٣٣هـ، الموافق ١/ ٦/ ٢٠١٢م.

(٢) انظر: وفاة شاعر القطرين خليل مطران، ماهر حسن، مقالة، صحيفة المصري اليوم، عدد:٢١٧٩، ١/ يونيو/ ٢٠١٠م.

فَغُصْ عَلى الـدُّرِّ في دِيوانِـهِ فَـإِذَا صَدَرْتَ عَنْ بَحْرِهِ حَـدِّثْ وَلا حَرَجـا
وَكُـلُّ أَزْمَـةِ هَـمٍّ لا يُفرِّجُهـا شِعْرُ النَّوَاسيِّ... فـاقْرأه تَجِـدْ فَرَجَـا[1]

وهكذا رأينا الشعر في علاقاته التبادلية فرض احترام ثقافة الآخر، وتقديره، بل والاحتفاء به، مع التمسك بحق الاختلاف الذي يسهم في إذكاء الإبداع، ويحقق الإضافة النوعية.

(١) انظر: شعراؤنا العرب اليهود ١/ ٢، أحمد الواصل، الغاوون، عدد:٣،أيّار ٢٠٠٨م.

الخاتمة:

أثبت الشعر على مر عصوره في حياة العرب قدرته التعبيرية الساحرة لإيجاد فضاءات رحبة للحوار التسامحي، وكان أسرع فنون الأدب تأثرًا وتأثيرًا، وأكثرها مرونة للقيام بدور السفير المرحب به لبناء العلاقات الداخلية والخارجية، وله يد مسهمة في صناعة التسامح بين الأمم في ضوء التجارب الإبداعية التي أنتجتها قرائح فريدة كانت تستلهم معانيها التسامحية من معطيات أجوائها المجتمعية الموروثة، وما تعتقده من أخلاق نشأت عليها، وقد قدّمت هذه الدراسة جهدها لتلقي الضوء على قيم التسامح والاعتدال الديني في تراثنا الشعري العربي من خلال التأصيل لعلاقة الشعر العربي في نشأته بالدين في ضوء مبدأ التسامح والاعتدال، وعبر تتبع معاني وصور التسامح والاعتدال الديني في الشعر العربي، والوقوف على منهجية التسامح والاعتدال الديني في النقد العربي، وقد تبين أن شعر العرب منذ باكورته في الجاهلية قدم منجزًا ثقافيًّا حفظ لنا التراث الأخلاقي والجمالي والاجتماعي في حياتهم، وكشف أن العرب هم أقرب الأمم لأخلاقيات الإسلام، ولذا كان من الصعب تمييز العربية على لسان شاعر نصراني، والعربية على لسان شاعر مسلم، كما دل التراث الشعري العربي على ألوان من التواصل والتقدير المتبادل، وهو أمر واقع في جميع العصور الأدبية، وإن كنا نلمس تفاوتًا في مدى حضوره كمًّا وكيفًا حسب معطيات المرحلة التي ينتج فيها الشعر، كما تبين أن هذا تراث الأديان الشعري العربي ومن منطلق التسامح والاعتدال الديني يتعزّز بالتقادم بين طائفة وأخرى، وأنه وبقدر ما يؤدّي الظرف الأيديولوجي إلى تباين المصالح، وفروق عمق الإرث، واختلاف التجربة الحضارية، تنكشف التمايزات الدينية عند العربي نفسه في ظلال من الوئام والسلام، كما أن من أبرز مظاهر التسامح والاعتدال الديني في تاريخ الشعر العربي أن المصادر الإسلامية هي من قامت بحفظ نتاج شعراء الديانات الأخرى الذي أُنتج في محيطها الجغرافي، واتضح أيضًا أن المنهج الاعتدالي في النقد هو الذي يحفظ للشعر مكانته الفنية، ويصون المعتقدات من تطاول

الشعراء عليها، وأن التسامح والاعتدال لا يعني الإفراط أو التفريط في ذلك فهذا لا ترتضيه الإنسانية السوية، كما تبين أن كتب الأدب والنقد في جملة حديثها كانت غاية في الإنصاف والاعتدال، فرأينا الشعر والنقد في علاقاتهما التبادلية فرضا احترام ثقافة الآخر، وتقديره، بل والاحتفاء به، مع التمسك بحق الاختلاف الذي يسهم في إذكاء الإبداع، ويحقق الإضافة النوعية.

وأخيراً أسأل الله أن يكتب لي أجر هذا الجهد، ويتقبله مني، ويغفر لي تقصيري، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على حبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.